

2

آلية الاستعجال: الأبوان

.....

عمد الأمريكيون إلى تشبيه
الطفولة بشيئين متناقضين. الأول: ربما ينبع من ماضي أمتنا
الزراعي، إذ يشبه الطفل بنبته تنمو وتحتاج الغذاء والعناية ثم
تترك لتتفتح حسب آلية النمو الداخلي الخاصة بها. هذا التشبيه
يترك الطفل يمتص العالم المحيط به ليصبح جزءاً منه. وقد
صوّر الشاعر الأمريكي والت ويتمان Walt Whitman عملية
التشرب هذه بمنتهى البراعة في قصيدته أوراق العشب Leaves
of Grass إذ قال:

المراكب الشراعية، والأمواج، والغيوم،
الطائر البحري المدوم،
وعبق سبخات الملح والطين، وحافة الأفق.
يحملها بين جنباته ذلك الطفل الذي طالما رحل
ويرحل الآن وسيرحل كل يوم^(١).

ولعل أفضل صياغة علمية للتشبيه بالنبته هو ما قاله جان بياجيه Jean Piaget، الذي رأى تطور الطفل جزءاً من العملية الأوسع للتكيف البيولوجي. يرى بياجيه أن خير تعبير عن الذكاء البشري هو أنه امتداد لهذا التكيف. فالتفكير، كعملية الهضم، يحول المعلومة الداخلة بطريقة تعود بالنفع على الفرد. لكن التفكير، مثله مثل البصر، يتكيف أيضاً مع ضغوط العالم حولنا. فالتفكير، مثل النبتة أو الكائن الحي (المتعضي) يغير البيئة ويتغير معها⁽²⁾ استعارة أخرى - قديمة أيضاً وذات بُعد ثقافي مهم - تلاحظ الطفل ضمن أطر جسدانية أكثر مما هي بيولوجية. جون لوك John Locke الفيلسوف الانكليزي الذي عاش في القرن السادس عشر أعطى هذا الرأي صيغة كلاسيكية عندما تحدث عن الطفل كصفحة بيضاء، تخط عليها خبرات الحياة⁽³⁾. وقد أعطى عصرنا الصناعي الحديث تصوراً مختلفاً قليلاً عن صيغة لوك، فنحن نرى الطفل نوعاً من «المادة الخام» التي تصنع وتعطى شكلاً من قبل الأبوين، والتعليم، والمؤسسات الاجتماعية. جون واتسون John Watson الطبيب النفسي الذي يعود الفضل إليه في تأسيس مدرسة السلوكية behaviorism، لخص هذا الطرح في مفخرته: «أعطني عشرة أطفال أصحاء وأنا كفيل بأن أختار أيّاً منهم، لا على التعيين، وأدربه ليصبح طبيباً أو محامياً أو فناناً أو تاجراً أو شحاذاً أو لصاً»⁽⁴⁾. مفخرة أخرى يتردد صداها عبر صفحات كتاب بي إف سكينر B.F. Skinner الأكثر مبيعاً في عقد الخمسينيات وهو

Walden Two، الذي طرح مفهوم «هندسة» تصرف الأطفال (وجميع الكائنات البشرية في أي مجتمع) وفق خطوط «صحية» «قابلة للتكيف»⁽⁵⁾.

من هنا فإن التشبيهين - الطفل ككائن حي تتبلور شخصيته الخاصة، والطفل كمادة مطواعة تنتظر بصمة المجتمع - يلزامنا إذ يمثلان نظامين اجتماعيين اقتصاديين حذرين عرفناهما في ماضينا وحاضرنا وهما النظام الزراعي والنظام الصناعي. في أمريكا اليوم، يميل الأشخاص الذين يعملون بانتظام مع الأطفال - من معلمين ومربين ومختصين بالرعاية - يميلون إلى تبني تشبيه عملية النمو، ومن هنا تجدهم يتطلعون إلى المدرسة كمزرعة تنمو الكائنات الحية فيها بحرية، كل حسب إيقاعه وموسمه. وبالمقابل لا عجب في أن الذين يتعاقبون على مناصب حكومية (من إداريين، ومسؤولين عن حفظ النظام، ومنظمات الشباب، وما إليها) يفضلون الرأي الذي يصور الأطفال كيانات مطواعة تنتظر أن يفرض عليها شكل من خارجها. من هذه الزاوية تعتبر المدارس أقرب إلى المصانع منها إلى المزارع، والطفل موضوع البحث لا يشبه الشجرة بقدر ما يشبه نتاجاً يلقيه أحد خطوط الإنتاج، بتصميم بعيد النظر ومقاييس نوعية.

على الرغم من ذلك فإن التشبيهين قد أكل الدهر عليهما وانقضى زمنهما، وحتى إذا توقفنا لنراقب مجتمعنا ونصفه، نجد أنه يتغير من حولنا. فقد طورنا اقتصاداً يوظف من قوة العمل

نسبة أصغر بكثير مما كان في السابق، سواء في المزرعة أو في المعمل. . وعدد الأشخاص الذين يعملون في القطاع الخدمي الواسع لاقتصادنا يتجاوز حجمه حجم البروليتاريا الصناعية القديمة التي سادت في مطلع القرن العشرين. فقد جعل الإنسان الآلي، والمكننة والمصغرات والكومبيوتر المعمل التقليدي المكثف الخدمة (وعامل المصنع) نموذجاً قديماً، بقدر ما تغير المشهد الزراعي بفعل الجرارات الزراعية الضخمة، والحصادات - الدراسة، وأجهزة الرش، وأجهزة القطف. فالتكنولوجيا العالية، والهندسة الوراثية، ومعالجة المعلومات تستخدم ملكات واستراتيجيات وتجهيزات تختلف عما يستخدم في المزارع والمصانع التقليدية.

هذه التطورات لا تستطيع أن تمر مرور الكرام على آرائنا بأنفسنا وأسرتنا. وإذا ندخل مرحلة ما بعد الثورة الصناعية لابد لنا أن نرسم تشبيهات ملائمة لمفهوم الطفولة ضمن هذا الإطار من التغيير الاجتماعي والاقتصادي والعائلي الذي يطال أيضاً بنية القيمة، يجب أن ننظر إلى نزعتنا الجديدة نحو استعجال نمو الأطفال. وحتى الآن ما زلنا بحاجة إلى تشبيه يصف هذه النظرة المستعجلة لتربية الأطفال، التي تسيطر علينا، للأسف. أحد الاحتمالات طبعاً هو أنه في وقت تسوده ظروف اقتصادية قاسية، نجد أنفسنا نعود إلى المفهوم الذي كان سائداً في العصور الوسطى الذي يرى في الأطفال راشدين مصغرين مستعدين لدخول قوة العمل. وتميل الزيادة الملحوظة في

استغلال الأطفال وإساءة معاملتهم (الذي كان سائداً أيضاً في القرون الوسطى) إلى دعم هذه الفرضية، كما الزيادة في جرائم الراشدين (من سرقة وقتل) التي يرتكبها الأطفال. بالمقابل، وعلى الرغم من أن الأمر دقيق الصلة، فإن هذا الرأي يغفل حقيقة أننا لسنا أبرياء حيال الأطفال - كما كان آباؤنا في العصور الوسطى - ولا اقتصادنا ومجتمعنا البدائي. إننا مخادعون لحد ما، ولسنا أبرياء.. حتى أننا نضايق أطفالنا ببعض المطالب العاطفية - الثقافية - الاجتماعية للراشدين، وفي الوقت نفسه نعاملهم - بتفاخر ملفت - معاملة الأطفال. حتى أننا ندلّعهم كالأطفال الصغار (حتى المراهقين منهم) بأن نسمح لهم بالفوضى في غرفهم، وترك الأشياء مبعثرة، والاستيقاظ في أوقات غير نظامية، وبتناول الأطعمة عديمة الفائدة. ونحن بهذا نلمس منزلة الأطفال الخاصة في الوقت الذي نستعجل نموهم بسرعة.

كيف يستعجل الوالدان أطفالهما؟ وأي دوافع قوية وارتباك تجعلنا نتجاهل جبل المعرفة الذي لدينا عن الطفولة وتطور الطفل، وعن الحاجات والهوية الخاصة التي تميز الجيل الفتى؟

نجد بداية الجواب في الموضوع الذي تطرقنا إليه قبل الآن، وهو التغير السريع. إن السرعة المذهلة والمدى الشاسع للتغيرات الاجتماعية الجارية هما السمة المميزة للمرحلة التي نعيشها، والتي تباعد البون بيننا وبين جميع المجتمعات السابقة. بالنسبة إلينا، لا شيء دائم وثابت في المستقبل المنظور. والشدة

هي الاستجابة النظامية لهذا التغيير، لهذه اللادوامية. إننا نعيش زمن شدة تطال كل شيء وتتجذر فيه. إنها رفيق ملازم لدرجة أننا ننسى إلى أي مدى تجتاح الشدة حياتنا.

سنتوقف فيما بعد لنتفحص مفهوم الشدة بمزيد من التفصيل، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاثة مصادر محددة للشدة لدى الأبوين كراشدين، ازدهرت بشكل ملفت في السنوات الأخيرة. أولاً: نحن الآن أكثر خوفاً. فقد أصبح خطر العنف، والسرقة، وإثارة الرعب سيفاً مسلطاً على رقاب سكان المدن الأمريكية. فكل شخص من سكان المدن الكبرى (وكثير من سكان الضواحي والأشخاص الذين كانوا يسكنون المدن) قد تعرض أو يعرف شخصاً تعرض لهجوم جسدي بشكل أو بآخر.

إننا نزداد توحداً فقد وصلت إحصائيات الانفصال والطلاق حدوداً غير مسبوقة وفي الوقت الذي اختار بعض الأشخاص أن يعيش بمفرده ويجد راحته في العزلة، نجد مزيداً من الأشخاص اليوم يعيشون بمفردهم لأنهم غير قادرين على الاجتماع بشريك مناسب.

كما أن استقرارنا المهني يزداد تقلقاً بسبب الأخطار الكامنة في إعادة هيكلة البطالة التكنولوجية، والتضخم، والكساد، وارتفاع الأسعار، وما إليها. الأشخاص الذين يعانون من الشدة، كمثل الذين يعانون من ضعف في الصحة يستغرقهم همهم الشخصي - أعباؤهم، وردود فعلهم، ومشاعرهم، وقلقهم

الذي لا ينتهي. إنهم لا يرون إلا أنفسهم، على الرغم من أن ذلك لا يعني أنهم مغرورون أو متكبرون. وليس لديهم متسع من الوقت للاهتمام بحاجات ومصالح الآخرين. هذه الحالات لم تمر دون أن يلحظها أحد - بل على العكس. فقد ابتكر الناقد الاجتماعي توم وولف Tom Wolfe عبارة «عقد الأنا» المعبرة ليصف الاستغراق في «القدرة الشخصية» التي ميزت عقد الستينيات وأوائل عقد السبعينيات⁽⁶⁾.

وقد أطلق المؤرخ كريستوفر لاش Christopher Lash على مجتمعنا اسم «ثقافة النرجسية» - والنرجسية في نظرية التحليل النفسي هي تعلق الذات بالذات كهدف رئيسي للحب⁽⁷⁾. ويجوز أن التركيز الملحوظ على الذات الذي ميز عقد الثمانينيات لخص بلفظة (يوبوي) Yuppie، وهي بمثابة رد على الشدة التي ترافق العيش في مجتمع حيث التقلب هو الثابت الوحيد وحيث الجذور الضرورية والثوابت الدائمة في الحياة - العامة والخاصة - تُمحي بسهولة أو تخنق في مهدها.

ويضعنا انتشار التركيز على الذات في ورطة فيما يتعلق بتربية الأطفال. التربية الجيدة للطفل تتطلب، أكثر من معظم النشاطات في الحياة، قدراً كبيراً من إغفال حاجات الفرد الذاتية وتطلعاته. وذلك سهل نسبياً عندما يكون المجتمع مستقراً وعندما يكون هناك بنية داعمة يستطيع الوالدان الاعتماد عليها. وقد قدمت الثقافة التقليدية في اليابان والصين أمثلة رائعة، بهذا الخصوص حتى الآونة الأخيرة: بنية اجتماعية مستقرة محددة

بشكل واضح تحرر الأبوين من الشدة التي ترافق التكيف مع تغيير اجتماعي مستمر وتسمح لهما بتركيز طاقات التكيف التي يتمتعان بها على الأطفال الذين ينمون ويتغيرون بين ظهرانيهم. لكن إذا فكرت بالذكر الراشد في الولايات المتحدة اليوم، الذي يعيش في ظل اقتصاد يشوهه التضخم أو يخترقه الاعتماد على الكمبيوتر، والتصغير، والأتمتة، وتضغطة المستوردات الأجنبية، تجده محقاً إذ يخاف أن يفقد عمله. إذا كان يعمل في حاضرة في الميديويست الصناعي القديم، تجده الآن يتساءل عما إذا كان عليه أن يتعلم مهنة أو مهارة جديدة وينتقل إلى العيش في مدينة أو ولاية جديدة. مخلفاً وراءه الأمان وشبكة الأصدقاء والأسرة. لقد انفصل كثير من أصدقائه بالطلاق أو يعيشون علاقات عاطفية، وها هو يتساءل إذا كان هو أيضاً سيصبح مثلهم. حتى الكنيسة تعطيه مشاعر مختلطة. إذا كان كاثوليكياً مثلاً فإن الواعظ المحلي ربما يقول شيئاً عن تحديد النسل والجنس، مختلفاً عما يقوله القاتيكان. فمن يصدق؟ وماذا يعتنق؟ إنه يسمع طوال الوقت عن الجريمة، والعجز، وتنامي خطر التسرب النووي واحتمال اندلاع حرب عالمية أو كارثة بيئية. إنه يشعر بالقلق حيال الآثار الصحية السلبية للأغذية التي تسبب الاعتیاد كالقهوة والسكرارين والكوليسترول واللحم الأحمر وأي شيء آخر من المواد الاستهلاكية التي يربو عددها على المئة.

وإذا فكرت في الأم الوحيدة التي تحاول أن تنشئ ثلاثة

أطفال دون دعم، أو بدعم لا يذكر، من زوج سابق. (نصف أطفال الجيل الحالي يعيشون في بيوت يديرها أحد الوالدين) هؤلاء النساء لا يتوقف همهن عند الدخل ورفاه أطفالهن وإنما يقلقهن التفكير في الوحدة عندما يكبر الأولاد. أضف إلى ذلك حقيقة أن المرأة العاملة تتقاضى أجراً أقل مما يتقاضاه الرجل، وكثيراً ما تتعرض لمضايقات جنسية في عملها، وتواجه صعوبة في تأمين الدخل بمفردها.

رجل كهذا وامرأة كهذه تتزايد أعدادهم في مجتمعنا - قد يستهلكان قدرأ كبيراً من الجهد في التكيف مع الشدة اليومية للحياة بشكل لا يترك كثيراً من القوة أو الحماسة لرعاية الأطفال. إنهم، ونحن أيضاً، غير قادرين على تطبيق ما لدينا من معلومات حول الأطفال. فنستعجل نموهم لأن الشدة تحثنا على أن نقدم حاجاتنا نحن على حاجاتهم. وقد يبرر الوالدان تصرفاتهما بالعودة إلى صورة الطفل «المطواع بلا حدود». وإذا نعلق بدوامه نضالنا الخاص للتكيف، نغرق في مطالب الحياة المتعددة، فإننا نفضل أن يكون أطفالنا قد قدوا من مادة مرنة ورجوعة بلا حدود. بما يمكننا من أن نتوقع منهم سهولة التكيف مع حاجاتنا، وارتباطاتنا، ومصالحنا، وتطلعاتنا كراشدين. إننا نتوقع منهم التكيف مع برامج حياة الراشدين أكثر مما نتكيف نحن مع برامج حياتهم الطفولية. بالمقابل فإن تشبيه الطفل بنبتة تنمو لا يخلو أيضاً من أخطار. فقد يؤدي إلى فهم رومانتيكي للطفولة على أنها وقت يخلو من النزاع أو الخوف أو

الصراع أو المتطلبات.. وهذا بحد ذاته مفهوم يحوي من الخطورة ما يحمله المفهوم المعاكس للطفل «المطواع بلا حدود». مما أدى إلى الإفراط في التشاؤم، الذي يعتبر سمة عصرنا، مثله مثل الاستعجال.

كيف إذاً تتحول شدة الوالدين وتشبيه الطفل بالمادة الخام إلى استعجال؟ لقد رأينا أن الراشدين يتحولون بموجب الشدة إلى التركيز على ذاتهم، مما يجعلهم يعانون مزيداً من الصعوبة في رؤية الأشخاص الآخرين بكل تعقيدات شخصياتهم الفردية. فالأشخاص الذين يعانون من الشدة يميلون إلى رؤية الآخرين كرموز مختصرة، وليس كشخصيات ذات أبعاد تصعب قراءتها. الشدة تجعلنا نرى الآخرين أنماطاً معينة مسلماً بها يسهل تصنيفها بشكل نمطي مجرد. عندما نمرض نرى الآخرين غالباً يمثلون الصحة، وعندما نشعر بالخوف، يبدو الآخرون شجعاناً، وعندما نكتئب لا نرى أمامنا سوى أشخاص سعداء محظوظين. وفي الوقت الذي نتصور نحن (أو هم) أننا نتفاعل معهم كأفراد: جون، ماري، فريد، فإننا في الحقيقة نعاملهم كأنماط مبسطة، وهذا لأننا ملتفون داخل شرقة مرضنا، أو خوفنا، أو كآبتنا. وهكذا فإننا نرى في أطفالنا أشياء أو رموزاً - وليس أفراداً كاملين - عندما نستعجلهم.

لماذا يلجأ الأشخاص الذين يعانون من الشدة إلى الرموز؟ ولأي غاية يستخدمونها؟ أولاً، الأشخاص الذين يعانون من الشدة لا يركزون على أنفسهم فحسب وإنما تعوزهم الطاقة

اللازمة للتعامل مع الأمور بمعزل عن أنفسهم. والرموز، أو بالأحرى التبسيط المبالغ به، لا تهدر الطاقة. الوالدان اللذان يعانيان من الشدة يريدان أطفالهما رموزاً لأن تلك هي الطريقة الأقل تطلباً في التعامل معهم. فالطالب أو المترشح أو لاعب التنس أو المغرور رموز محددة بوضوح توجه طريقة تفكيرك أو رؤيتك أو تصرفك بسهولة. الرموز تحرر الأبوين من المهمة التي تستغرق كثيراً من الجهد والطاقة التي تتطلبها معرفة الطفل ككيان متكامل كشخص له أبعاده. كما أن الرموز توفر بطريقة أخرى. إنها أهداف سهلة التناول لإسقاط المشاعر والأحاسيس والحاجات التي لم تلب. وهكذا فإن الآباء إذ يعاملون الأطفال كرموز يوفرون الطاقة اللازمة للتعامل مع الشدة ويصبح لديهم شاشات عرض جاهزة يسقطون عليها بعض تبعات الشدة والقلق والخوف والإحباط. إلا أن توفير الطاقة هذا لا يعود بالفائدة، لأننا إذ نعامل أطفالنا كرموز - ونستعجلهم - فإننا نؤذيهم وبالتالي نؤذي أنفسنا.

الطفل كذات بديلة

الوالدان العاملان - أو بتعبير آخر جميع الآباء وكثير من الأمهات - يعانون اليوم من ضغط لم يسبق له نظير منذ (الكساد الأكبر). فقد استعاضت معظم الأعمال بالآلة عن الكائنات البشرية. (فبدخول الطباعة الكومبيوترية مثلاً اندثرت مهنة عامل طباعة الليثوتيب) ولابد لكثير من العمال الكادحين من مواجهة حقيقة أن عليهم أن يتعلموا حرفة جديدة. بينما يواجه نظراؤهم

من الموظفين ذوي الرواتب خطر فقد عملهم في وقت تتعرض
أقدار الشركات لسعود ونحوس بسبب التضخم، وانخفاض
الإنتاج، والعقود الحكومية التي لا يمكن الاعتماد عليها، أو
إعادة الهيكلة. وما القلق الذي تتسبب به ظروف كهذه سوى
أحد الأشكال الواضحة للشدة.

إضافة إلى أن البهجة وروح العمل الجماعي التي كانت
تميز علاقات العمل في كثير من الصناعات قد اختفت. يقول
الپروفيسور ليستر ثورو Professor Lester Thurow من معهد
ماساشوسيتس للتكنولوجيا Massachusetts Institute Of
Technology إن المزية التنافسية لليابان وألمانية على الولايات
المتحدة تعود إلى روح التعاون المزدهرة وروح التضامن
في البلدين المذكورين. ويشير إلى أن كثيراً من العمال في
اليابان يتلقون دخلاً ثالثاً إضافياً يعتمد على أرباح الشركة
وهذا شكل من أشكال التعويض تتردد الولايات المتحدة في
القبول به⁽⁸⁾.

ويقول آكيو موريتا Akio Morita مدير شركة سوني
والمساهم في تأسيسها: أعتقد أن العمل الجماعي، تاريخياً، هو
الطريقة الأمريكية. ولكن سرعان ما نسي مدراءكم ذلك. لقد
أصبحوا طماعين، ينظرون إلى العامل نظرتهم إلى أداة. وهذا
لم يعد بأي فائدة على المنتجات الأمريكية أو الشركات
الأمريكية، كما أساء إلى وضعكم التنافسي في العالم⁽⁹⁾. ولم
يعط العامل أي إحساس بالرضا كما أن جو «الكلاب التي تأكل

بعضها» السائد في بيئة العمل في الولايات المتحدة جو جائر ينشر إحساساً بالاستياء العام بين الموظفين.

وتطراً مشاكل مماثلة بين أوساط العاملين ذوي الرواتب. فقد اجتمعت بعدد من مدريري المدارس من إحدى الضواحي الغنية في الشمال الشرقي. وأتت روايتهم مماثلة لروايات أخرى سمعتها من جماعات مماثلة في كافة أنحاء الولايات المتحدة وكندا. رجال ونساء في العقد الثالث من العمر أو أوائل العقد الرابع يتقنون أعمالهم، لكنهم لا يرون فرصة كبيرة للتقدم كما لا يلقون تقديراً يذكر لما يقومون به من رؤسائهم. فالترفيعات تأتي على أساس اعتباطي أو بشكل آلي، دون الإشارة إلى نوعية العمل الذي يقوم به الفرد. وبالتالي لم يعد أولئك الأشخاص يشعرون بمعنى أو قيمة العمل الذي يقومون به، لسبب أو لآخر. إلا أن هذه المجموعة نفسها أصبحت متحمسة عندما تحدث أفرادها عن أطفالهم، وخاصة مشاركة أطفالهم في رياضات فردية وجماعية. وعلى الرغم من عدم توفر إحصائيات لدي تدعم تعميماً كهذا، إلا أنني أستطيع القول إن هناك رابطة قوية بين الرضا عن العمل والقلق الذي يتسبب به من جهة، وما يحققه الأولاد من نجاح في الرياضة في الجهة الأخرى. من هنا نجد أن الأطفال قد أصبحوا رمزاً أو وعاء يحتوي إحباطات أهلهم التنافسية في مكان العمل. يستطيع الوالدان التفاخر بنجاح الطفل أو يلقون باللائمة على المعلم لفشله. في أي حال يسارع الأبوان إلى التعويض بالالتزام بحياة الطفل الرياضية أكثر من

اهتمامهما بحياته العملية. والآن إذ يبرز الاستياء من العمل في وقت مبكر من العمل الوظيفي المحترف، يبرز الاهتمام التعويضي بمساهمة الأطفال في الرياضة في وقت مبكر جداً من حياة الطفل.

وطبيعي هنا أن تثقل شدة اهتمام الأبوين وزخم ذلك الاهتمام أو طبيعته البديلة، على الطفل وتسرق من النشاط الرياضي الذي يمارسه طبيعته المرحّة التي تحمل طابع اللعب. وقد قدم الكاتب الرياضي الشهير جون أندروود John Under wood اتهاماً قوياً معبراً للاتحادات الصغيرة بأنها أسوأ مدمر لمرح الرياضة. إذ قال:

إن المتعة شرط لا بد منه في الرياضة. وعندما تحرم الرياضة من المتعة المرافقة لها فإنها تفقد كونها رياضة. قد تكون الاتحادات الصغيرة في جميع أنواع الرياضة أسوأ من يخرج المحترفين وعلى الرغم من أن بعض المراقبين يعتقدون أن تلك الاتحادات تنطوي على قيمة كبيرة إلا أن لها أخلاقها وأدائها الخاصة. يقول الفيلسوف روبرت ويس Robert Weiss «ألغوا الاتحادات الصغيرة»، ويقول عالم الاجتماع دافيد رايسمان David Riesman «امنعوها».

ويعرب الطبيب النفسي الرياضي بروس أوجيلفي Bruce Ogelvie عن أسفه حيال التكبر الذي يبديه مدربي الاتحادات الصغيرة بشكل يثير الاشمئزاز، ومعظمهم ليس مؤهلاً لذلك العمل. ويقول طبيب نفسي آخر هو توماس

تاتليو Thomas Tatlio إن بعض المدربين يمضون إلى حد الاعتقاد بأن «الرياضة حرب». فيجعلون أبناء الثمانية يجلسون على المقعد بينما يلعب الآخرون، دون أن يتعلموا شيئاً سوى رياضة «الفوز مهما كلف الأمر» التي تمارسها النخبة.

وحرى بالمشاركة الرمزية - بجولة في الميدان الأيمن، ودقيقتين في الربع الرابع - أن تحطم المعنويات بشكل كامل. ليس لائقاً أن تزرع في العقول الصغيرة الضغط باتجاه الفوز، والضغط لأن تكون «مثل جو غرين Joe Green» الحقيق. كما أن من المضحك أن تلبس الأطفال ثياب المشجعين الغالية التي تليق بحفلات الكبار. لأنك بذلك تذهب بمعظم الخاصية الرفيعة التي صممت الرياضات التنافسية لإعطائها أثناء عملية النمو⁽¹⁰⁾.

وقد تعرض الآباء، خلال السنوات العشر الماضية، لضغوط جديدة لإدخال أطفالهم الصغار في رياضات منظمة. فقد أثار النجاح الباهر الذي حققه لاعب الغولف تايجر وودز Tiger Woods تساؤل كثير من الآباء عما إذا كان عليهم البدء بإعطاء أطفالهم الصغار تدريباً رياضياً. إذ يُقال في وصف تايجر وودز إنه أعظم لاعب غولف عرفه التاريخ وقد بدأ اللعب في عمر الثالثة. مما يدعو إلى الاستنتاج أن التبكير في ممارسة الرياضة للطفل يعود عليه بالفائدة. قد يبدو ذلك الاستنتاج معقولاً إلا أنه مخطئ. لنأخذ موزارت مثلاً: اقترَبَ ملحن موسيقي طموح من موزارت وطلب منه أن يعلمه كيف يكتب

سيمفونية. أجاب موزارت أن الأفضل أن يبدأ بشيء أبسط، كالدراسة. امتعض السائل من هذه الإجابة وقال: «لكنك كتبت سيمفونية وأنت في الثامنة». فأجاب موزارت بلا تردد: أجل، هذا صحيح، لكن الصحيح أيضاً هو أنني لم أسأل كيف أفعل ذلك. المغزى من هذه القصة طبعاً هو أنك لا تستطيع أن تجعل من الاستثناء قاعدة. يجب ألا نجعل من تايغر وودز نموذجاً يقد على قياسه لاعبو الغولف الموهوبون. فالموهبة أمر لا يعلم.

وهناك أسباب كثيرة تغري آباء هذه الأيام بإدراج أطفالهم في رياضات منتظمة في عمر مبكرة. أحد هذه الأسباب طبعاً هو أن البدء في سن مبكرة يعطي الطفل فرصة أكبر لتحقيق نجاح لافت. سبب آخر هو ضغط الصنو الأبوي. ففي حين يضع معظم آباء مجتمع ما أطفالهم في فريق كرة قدم، في رابطة صغيرة، أو فرقة باليه فإن الطفل الذي لا يشارك في تلك النشاطات يجد نفسه بلا رفاق يلعب معهم. وإذا لم يسجل الطفل في برامج مماثلة فإنه لن يجد رفيقاً يلعب معه في الجوار. سبب آخر لتسجيل الأطفال الصغار في رياضات منتظمة ينبع من الخوف. فكثير من الآباء اليوم يخافون من إرسال أطفالهم ليلعبوا في الخارج. ويشعرون بالراحة أكثر إذا كان الطفل في برنامج يضم كثيراً من الأطفال بإشراف شخص راشد. أخيراً، يعتقد كثير من الآباء أن المشاركة في ألعاب رياضية تعزز ثقة الطفل بنفسه وترسخ إحساسه بالقدرة، بالإضافة

إلى أنه يتعلم التعاون والتنافس. جميع هذه الأعذار ما هي إلا مثال سيء الطالع لقوة ضغط الصنو الأبوي.

البركة في التبكير

الأفكار المخطئة ترسخ في الأذهان بشكل أسرع من الأفكار الجيدة. والاعتقاد بأن البركة في التبكير بالنسبة للأطفال واحد من هذه الأفكار الرديئة التي يبدو أنها قد رسخت، ويصعب التغلب عليها. ففيما يتعلق بالرياضة ليس هناك أي دليل قاطع على أن البدء في سن مبكرة، سواء في رياضة فردية أو جماعية، يعطي الطفل مزية أو تفوقاً دائماً.

فأي رياضة تمارسها الأسرة كلها - كالتزلج - قد يكون نشاطاً أسرياً رائعاً. يعرف الأبوان قواعده. وطالما أن الطفل يمارس الرياضة بطرق تلائم عمره، وبمعدات تلائم عمره، فإن الخبرة التي يحصل عليها قد تكون خبرة إيجابية. إلا أن الأمر يختلف عندما يقحم الوالدان طفلهما في نشاط لا يمارسه. وكثيراً ما يضع الوالدان الطفل في فريق لكرة القدم أو البيسبول أو يعطونه دروساً في التنس أو التزلج، ليس لأنها رياضة يحبان الاستمتاع بممارستها كأسرة، وإنما على أمل زائف بأن تلك الدروس ستضمن للطفل بطولة أولمبية. وهذا أمل مضلل تماماً. فجسم الطفل يختلف تكوينه عن جسم الراشد. لأن رأس طفل في الثالثة أو الرابعة يعادل ربع حجم جسمه، أي يعادل حجم رأس راشد يحمل رأساً بقياس كرة الشاطئ. كما أن عظام

الطفل لم تتكلس بشكل كامل وعضلاته لم تصل حجمها الكامل. هذا يعني أن ممارسة رياضة الراشدين قد يعرض الأجسام الغضة لضغط بلا طائل وهناك حالياً اختصاص فرعي في طب الأطفال، هو الطب الرياضي الطفلي - يعالج الإصابات التي يتعرض لها الأطفال في الرياضة. وأصبحنا نعرف الآن مثلاً، أن الرامي في الاتحاد الصغير لرياضة البيسبول يجب ألا يسدد كرات ملتوية لما تسببه من شدة بالنسبة للأذرع الفتية. وليس هناك أي دليل على أن ممارسة أي رياضة منظمة قبل سن المدرسة يعطي الطفل مزية دائمة. فيما الدليل متوفر على أن ممارسة رياضات الراشدين في عمر مبكرة قد يعرض الطفل لإصابات طويلة الأمد.

أولاد الجيران

يستدعي تعبير «ضغط الصنو» صورة صغار المراهقين الذي يتأثرون بأصدقائهم. إلا أن الأقوى من ذلك الضغط هو ضغط الصنو الأبوي. الذي قد يكون إما مباشراً أو غير مباشر. عندما تجد معظم الآباء يشترون لأطفالهم أحذية نايكي Nike أو آخر نموذج من الألعاب المبتكرة فإنك ستجد صعوبة في رفض شرائها لابنك. لأنك لا تريد أن يشعر طفلك أنه مختلف عن بقية الأطفال أو أن يستبعد عن أحاديثهم وألعابهم.

شكل آخر من أشكال ضغط الصنو الأبوي نصادفه عندما يسجل الآباء أطفالهم في برامج رياضية منظمة ولا يبقى أي

أطفال في الجوار يلعبون ويتسكعون بحرية. إذا كنت تعتقد أن تسجيل الأطفال الصغار في رياضات منظمة يعرضهم لمخاطر عليك ألا تسجلهم في برامج من ذلك القبيل. هناك عدد من الخيارات. أحدها أن تجد أبوين آخرين يشاطرانك الرأي فتتخذوا ترتيباتكم بما يسمح لأطفالكم باللعب معاً. أو بإمكانك أن تجد في غياب رفاق اللعب فرصة تعلم أطفالك أن يكتفوا بأنفسهم، وأن يكتشفوا مكوناتهم الخاصة من الخيال والإبداع.

الأخطار في الخارج:

في الماضي غير البعيد، كان بإمكان الأبوين أن يرسلوا أطفالهما للعب في الخارج. لم تكن السيارات كثيرة أو قوية كما هي اليوم. كما كان هناك من الباحات المفتوحة، حتى في المناطق المدنية، أكثر مما لدينا اليوم. ولم يكن الخوف من أن يتعرض الأطفال للاختطاف أو العنف يثير قلقاً يذكر.

صحيح أن الجيرة الحالية، سواء في المدن أو في الضواحي، أكثر اكتظاظاً وأن حركة السير أشد ازدحاماً مما كانت منذ بضعة عقود. والباحات والأماكن المفتوحة أقل عدداً على الرغم من أن عدد الأطفال أكبر من أي وقت مضى. فنحن لم نواكب نمونا السكاني. ويؤسفني ويحزنني أن أرى أماكن اللعب العامة مزدحمة لهذا الحد. ولكن ليس صحيحاً أن الأطفال الذين يلعبون في الجوار أكثر تعرضاً للمخاطر مما كانوا في الماضي. فالفارق الوحيد هو أننا الآن، وبفضل التلفزيون،

نعلم كل عنف أو جريمة قذرة ترتكب بحق الأطفال بتفاصيل دقيقة تثير الهلع. مما يجعل تلك الحوادث تبدو أكثر شيوعاً مما هي فعلاً. كما أن أخطار حركة المواصلات حقيقية تماماً.

لقد أصبح البحث عن أماكن آمنة من خطر حركة السيارات، وتضم تسهيلات للعب الأطفال تحدياً حقيقياً في عالم اليوم. وما من شك في أن تسجيل الطفل في رياضة منظمة هو إحدى الطرق التي تضمن له لعباً خاضعاً للرعاية والإشراف في مكان آمن. إلا أن هذا مجرد واحد من خيارات كثيرة أمام الأبوين. فاختيار برنامج تنموي جيد يلائم الطفولة المبكرة، يقدم للأطفال الصغار كل ما يتطلبه التطور الصحي من تريض وتفاعل اجتماعي. هذه البرامج غالباً تلحق أماكن اللعب بمسارات للدراجات ذات الثلاث عجلات، وأكوام الرمل، وأجهزة التسلق، وكثير غيرها.

وهناك خيار آخر أمام الأبوين بتنظيم مجموعات لعب في بيوتهم أو حديقتهن أو إحدى الحدائق العامة القريبة. ويؤدي الأطفال إبداعاً حقيقياً عندما تتاح لهم فرصة اللعب الحر. وبوجود منطقة آمنة، وإشراف أحد الراشدين، وبضعة وسائل كالكرات، ودلاء الرمل، والثياب القديمة، وما إليها، يمضي الأطفال وقتاً رائعاً في اللعب على هواهم ووفق ابتكارهم. قد يستغرق بعض الوقت، ولكنه لا يزيد عن الوقت الذي تمضيه في اصطحاب الأطفال إلى أماكن الرياضة وإعادتهم منها. وهكذا يمكن القول إن الأطفال الصغار يحتاجون فعلاً إلى

مساعدة الراشدين في البحث عن أماكن لعب آمنة ومقبولة. وتأمين إشراف الراشدين بعد أن يتم العثور على مكان يلبي المتطلبات، فكرة جيدة. إلا أن كل ذلك يمكن تحقيقه دون تسجيل الطفل في رياضة فردية أو جماعية للراشدين. في عمر ما قبل المدرسة يكتسب الأطفال من لعبهم العشوائي أكثر بكثير مما يكسبون في أي رياضة منظمة.

تعلم الثقة بالنفس، وعزة النفس، والتعاون والتنافس:

غالباً ما يركز الآباء الذين يدافعون عن ملء فراغ الأطفال برياضات فردية أو جماعية منظمة على أن الأطفال الذين يساهمون في هذه النشاطات يتعلمون من خلالها الثقة بالنفس وعزة النفس، بالإضافة إلى التعاون والتنافس. إزاء هذا الادعاء لابد من القول أولاً إن هناك عدداً لا يُحصى من الطرق التي تعلم الأطفال الثقة بالنفس، وعزة النفس، والتعاون والتنافس. فالأطفال يتعلمون الثقة بالنفس مثلاً إذ يسمح لهم بأداء أشياء بأنفسهم كتناول الطعام ودخول دورة المياه. كما يتعلمون الثقة بالنفس إذ يسمح لهم بالمبادرة بنشاطات مع والديهم ويلقون الدعم في مساعيهم. أما عزة النفس فلا يتعلمها الطفل من نشاطاته الخاصة وإنما من «التقدير المكتسب» من الآخرين. يشعر الأطفال الوسيمو الطلعة غالباً باحترام الذات. لكن جميع الأطفال يستطيعون اكتساب احترام الذات إذا عوملوا باحترام وتقدير. وذلك بأن نتوخى الأدب في التعامل مع الأطفال بالفاظ

مثل: «من فضلك» و«شكراً» و«اسمح لي»، في المجالات التي نستخدم هذه الألفاظ مع الراشدين. الأطفال الذين يلقون هذه المعاملة يعتبرون أنفسهم مهمين وجديرين بالاحترام.

ممارسة الرياضة لا تحقق دائماً النتائج نفسها. فكثيراً ما تنمو لدى الأطفال الذين يكون أداؤهم الرياضي ضعيفاً مشاعر بالنقص أكثر مما تتطور ثقتهم بأنفسهم.

أما فيما يتعلق باحترام الذات فإن الأطفال الذين يمارسون الرياضة لا يعاملون دائماً باحترام وتقدير سواء من قبل أعضاء فريقهم أو مدربهم أو أهلهم. وكثيراً ما يمضي اللاعبون الأقل موهبة معظم وقتهم على المعقد. وكثير من الآباء تأتي ردودهم سلبية وأحياناً عنيفة حيال ارتكاب الطفل خطأ في اللعب أو إزاء قرار المدرب. كما أن مساهمة الطفل في رياضة جماعية منظمة ليست الطريقة الوحيدة، أو الأفضل، التي تنمي لديه التعاون والتنافس. فالأطفال الذين يتبعون برنامجاً تنموياً ملائماً للطفولة المبكرة، مثلاً، يتعلمون التعاون الصحي كل يوم. وعندما يشاركون في مشاريع جماعية، أو في تقديم مسرحية، أو ألعاب جماعية فإنهم يتعلمون أيضاً العمل مع الآخرين. كما يتعلم الأطفال التعاون مع الأطفال الآخرين من خلال برنامج جيد لمرحلة الطفولة الأولى، كما يتعلمون التنافس مع أنفسهم. فأفضل أشكال التنافس هو أن تحاول باستمرار أن يكون أداؤك أفضل مما كان في السابق. وعلى الرغم من أن هذا النوع من التنافس يمكن تعلمه في الرياضة المنظمة، إلا أن تعلمه ممكن

أيضاً من خلال المشاركة في أنواع أخرى من النشاط الاجتماعي.

كما يتعرض الأطفال الذين يمارسون رياضة جماعية لخطر تعلم النوع الخطأ من التنافس. فكثير من الآباء يندفعون بشكل مبالغ فيه. وإذا خسر فريق ولدهم فإنهم يعنفون المدرب أو يتهجمون عليه بالضرب أو بالضغط الشديد، أو يعنفون ولدهم وربما يصفعونه. وعلى الرغم من أن كثيراً من المدربين يشجعون فريقهم على تهنئة الفائزين وعلى التحلي بأخلاق رياضية حميدة، لكن الأمر ليس دائماً كذلك.

واضح أنني لا أرى فائدة تذكر، وإنما مخاطرة كبيرة، في تشجيع الأطفال الصغار على الاشتراك في فريق نظامي أو في رياضات إفرادية. وأعتقد أن ليس هناك أي سبب يدعو إلى إقحام الطفل في رياضة من ذلك النوع قبل سن السادسة أو السابعة. وقبل تلك السن يستطيع الأطفال اكتساب أي مزايا مدعاة لرياضات الراشدين المنظمة من المساهمة العادية في برنامج نوعي للطفولة المبكرة.

الضغط الأكاديمي:

يستعجل الأبوان أطفالهما عندما يلحان على اكتسابهم مهارات أكاديمية، كالقراءة في سن مبكرة. حتى أن بعض البرامج الآن تعد الوالدان أن بإمكانهما تعليم أطفالهما القراءة وهم رضع أو يحبون. وتعتبر رغبة الأبوين في تعليم أطفالهما

القراءة مبكراً خير مثال على الضغط الوالدي لنمو الأطفال عامة. يعكس هذا الضغط حاجة الوالدين، وليس حاجة الطفل أو ميله. في النصف الثاني من الكتاب سنتوقف عند هذه الحاجة الأبوية بمزيد من التفصيل. أما الآن فلا بد لنا من التمحيص في الدليل الذي يثبت أن الأطفال الذين يُدفعون دفعاً نحو القراءة في عمر مبكرة، ويبحثون عن الكتب والكبار الذين سيقراؤن لهم. هؤلاء الأطفال يبدو أنهم يتعلمون القراءة من تلقائهم دون كبير عناء أو صخب. إلا أنهم قلة. وقد وجدت دراسات أجراها زملائي وأنا وبعض الباحثين الآخرين أن 1 إلى 3 أطفال من كل 100 طفل يقرأون بشكل جيد (بسوية طلاب الصف الثاني) لدى دخولهم الحضانة. إذا كان تعلم القراءة بسهولة تعلم الكلام، كما يدعي بعض الكتاب، فكثير من الأطفال الآخرين ربما يتعلمون القراءة بمفردهم. إلا أنهم لا يفعلون، على الرغم من إحاطتهم بمواد مطبوعة، مما يوحي بأن تعلم القراءة ليس بالمهارة السهلة أو التلقائية.

إلا أن الأغلبية العظمى من الأطفال يتعلمون القراءة بسهولة إذا لم يستعجلهم أحد. وابني الأصغر حالة يمكن الاستشهاد بها. فهو الأصغر بين ثلاثة صبيان وهو منطلق جداً واجتماعي يتقن صنعة الكلام. كان يروي حكايات طويلة وهو في عمر الثالثة. إنه واحد من أولئك الصغار الذين عندما تسألهم سؤالاً فإنهم يعطونك إجابة كاملة غنية بالتفاصيل. وبسبب مهاراته الكلامية هذه ظننت أنه قد يرغب في تعلم القراءة في عمر

الرابعة. قرأنا معاً كثيراً من الكتب، وسألته إذا كان يريد أن يتعلم القراءة أو أن يحاول أن يقرأ الكتاب بمفرده. فلم يشأ. لسبب واحد، فيما أعتقد، هو أنني عندها لن أضطر إلى القراءة له وبالتالي فإننا سنفقد متعة الصحبة التي تجمعنا ذلك الوقت.

وبسبب عودة زوجتي إلى الدراسة وضعنا الطفل في مدرسة خاصة راقية جداً حيث لم يتعرض لأي ضغط يجعله يبكر في القراءة. وكان يجلس تحت الطاولة يحل مسائل في الحساب بينما الأطفال الآخرون يقرأون. سمحت له المدرسة بالاهتمام بالرياضيات ولم تضغط عليه في موضوع القراءة. وفي الصف الثاني أبدى اهتماماً بالقراءة وبدأ يحمل كتباً من المدرسة إلى البيت. والآن هو في أواخر دراسته الجامعية، يتخصص باللغة الإنكليزية. لا أعتقد أن وضعه سيكون كما هو الآن لو أنه أُجبر على القراءة.

الدراسات التي تتناول الأطفال الذين علموا القراءة في فترة متأخرة تؤكد تجربتنا مع ابننا. وقد أجرى المعلم الشهير كارلتون وشبورن Carleton Washburn دراسة مستفيضة في الثلاثينيات من القرن الماضي استهدفت أطفالاً في المدارس العامة في وينيتكا، إيلينويس Winnetka , Illionis قارن صفوفاً من الأطفال الذين تلقوا تعليمات القراءة الرسمية في الصف الأول مع أولئك الذين أول ما تلقوا دروس القراءة كانوا في الصف الثاني. وعلى الرغم من أن الأطفال الذين بدأوا مبكراً أحرزوا تقدماً مبدئياً في اختبارات القراءة المستخدمة لتقييم تقدم الطالب، إلا أن ذلك

التقدم تلاشى عندما أصبح الأطفال في الصف الرابع .

ربما كان الجزء الأكثر إثارة للحيرة في الدراسة هو المتابعة الطويلة الأمد التي أجريت عندما أصبح عناصر الدراسة مراقبين يافعين في مرحلة الدراسة الثانوية . أدخل إلى الصفوف مراقبون لا يعرفون في أي مجموعة كان كل طفل ، قام المراقبون بتفحص جميع أوجه عادات اليافعين في القراءة . فوجدوا أن المراهقين الذين تعلموا القراءة في مرحلة متأخرة كانوا أكثر حماسة وإقبالاً على القراءة من أولئك الذين تعلموا القراءة مبكراً⁽¹¹⁾ .

وقد تأكدت هذه البيانات بمعلومات تعليمية من بلدان أخرى . في انكلترا أجريت دراسات قارنت الأطفال الذين سجلوا في مدارس ابتدائية غير رسمية (للقراءة المتأخرة) وأولئك الذين انتسبوا إلى مدارس ابتدائية رسمية (للقراءة المبكرة) فتوصلت إلى نتائج مماثلة . وفي روسيا لا يبدأ التعليم والتوجيه الرسمي قبل سن السابعة ، وعلى الرغم من ذلك لا يبدو أن الأطفال الروس يعانون من قصور ثقافي . فالقراءة المبكرة إذن لا تؤدي بالضرورة إلى قارئ متلهف ، ولا تعتبر مؤشراً على النجاح المهني .

وتقترح دراسات أخرى أن الأطفال الذين تواجههم مهمة تعلم القراءة قبل نضوج الملكات العقلية اللازمة قد يعانون من مصاعب في التعلم بعيدة المدى . ففي إحدى المدارس الثانوية

قمنا بمقارنة درجات الطلاب المولودين في الخريف (في أيلول/سبتمبر وتشرين أول/أكتوبر وتشرين ثاني/نوفمبر وكانون أول/ديسمبر) ودخلوا المدرسة قبل أن يبلغوا الخامسة مع أولئك المولودين في نيسان/إبريل وأيار/مايو وحزيران/يونيه وتموز/يوليو الذين دخلوا المدرسة بعد أن بلغوا الخامسة من العمر. بالنسبة للصبيان خاصة كان هناك تميز في علامات المدرسة بين الذين دخلوا الحضانة بعد سن الخامسة على أولئك الذين دخلوا الحضانة قبل أن يبلغوا ذلك العمر.

إذا كان هناك مزايا لتعلم القراءة بشكل تدريجي فهل هناك تبعات يتحملها أولئك الذين درّبوا على القراءة في وقت مبكر؟ الأمر كله يعتمد على الطفل. الطفل الذي تعلم القراءة لأنه أراد ذلك لا يتحمل تبعه تذكر في المدرسة. إلا أننا وجدنا أن معظم القراء المبكرين لا يذكرون ذلك، ربما خشية أن يعتبروا مختلفين يصعب التعامل معهم. فبعض المعلمين يجدون في الأطفال الذين تعلموا القراءة مبكراً نوعاً من الخطر، إما لأنهم يضطرون إلى تقديم شيء خاص بهم أو لأنهم يشعرون أن شخصاً آخر قد سلب حقهم بتعليم الطفل القراءة. ذلك المعلم - والحمد لله أنهم ليسوا كثيراً - قد يتخذ موقفاً سلبياً تجاه الطفل الذي تعلم القراءة مبكراً مما قد يعكر حياة الطفل في الصف.

وقد صادفت مرة مثلاً أكثر خطورة عن أخطار الإسراع في تعليم الأطفال القراءة في مدرسة شيكاغو حيث كان معلم فائق الحيوية يدرّب أولاد الأربع والخمس سنوات السود على

القراءة. من أجل ذلك كان الأطفال يمضون ساعات طويلة في أداء التمارين. ولم يكن في نهارهم المدرسي متسع لأشياء أخرى. ولابد لي من القول إنني عندما جلست مع أطفال بمفردهم وطلبت منهم القراءة، أخذت بالسهولة والطلاقة التي كانوا يقرأون بها القصص. إلا أن ما لفت انتباهي أيضاً كان الهدوء الذي سيطر على أصواتهم.

وعندما قمت بزيارة لمجموعة من الصف الأول تلقت برنامج الحضانة ذاك لمست المزايا من حيث تقدمهم في القراءة. ولكن عندما طلبت من الأطفال أن يقرأوا فرادى. كان الهدوء في أصواتهم ملفتاً. كانوا يهمسون بما يقرأون لدرجة أنني كدت لا أسمعهم. لقد تعلموا تلك المهارة لكن بثمن باهظ، ورأيت في أصواتهم المنخفضة مؤشراً بالحرَج والخوف. إنهم لم يشعروا بمتعة القراءة بصوت مرتفع ولا بالمديح والاستحسان الذي أعربت عنه تجاه ما يفعلون. بدا أن القراءة كانت شيئاً فُرض عليهم بالإكراه أنفقوا من أجله كثيراً من الوقت والجهد، دون أن يدركوا قيمة ما يتعلمون. فأظهروا الفتور والانسحاب للذين كثيراً ما نلاحظهما لدى الأطفال الذين يدفعون بشدة نحو التحصيل. (هذا الموضوع سنعود إليه بشكل مفصل في الفصل التالي).

ضروري هنا أن نتحدث قليلاً عن برامج تلفزيونية مثل فتح يا سمسم Sesame Street وشركة الكهرباء Electric Company هذه وسواها من البرامج التعليمية للأطفال تُعرّف

الجيل الفتى على الأحرف والأصوات والأرقام. ولكن دراساتها، ودراسات الآخرين، أوصلتنا إلى أن المهم عند البدء في القراءة هو تعلق الطفل بأحد الكبار الذي يمضي وقتاً يقرأ للطفل أو معه. الدافع للقراءة، وهي مهمة صعبة، دافع اجتماعي. ودون ذلك التعلق والدافع الاجتماعي يصبح ما يراه الأطفال في برنامج افتح يا سمسم ضرباً من التسلية أكثر مما هو تعليم. كما أن درجات إنجاز القراءة الحالية لا تعطي دليلاً كافياً على أن لهذه البرامج التلفزيونية أي آثار واسعة أو بعيدة المدى على ما ينجزه هذا الجيل في مجال القراءة.

كما يمكن القول إن ضغط الأبوين لاستعجال الأطفال تعليمياً في سنوات مبكرة امتداد هابط لقلق الأبوين الذي يعبر عنه مع المراهقين. فقد حورب «تجميع القدرات» مثلاً عقوداً كثيرة. ويؤكد الأبوان اللذان يعمل أولادهما المراهقون بسرعة أخفض من الطبيعية أنه يجب أن نتوقع من هؤلاء الفتيان أن يقوموا بالعمل نفسه الذي يقوم به أندادهم الأسرع حركة كي لا يتخلفوا عنهم. . وما أشبه فشل بعض الآباء في إدراك حدود إمكانيات أولادهم في الدراسة الثانوية بإصرار بعض الآباء على ضرورة تعليم أطفالهم القراءة في سن مبكرة. في كلتا الحالتين، يبدو أن الوالدين يريدان أن ينمو أطفالهما أسرع من ما يبدو معقولاً بالنسبة للأطفال موضوع الحديث. يجب أن يخضع الأطفال لتحدي ثقافي، على أن يكون ذلك التحدي بناءً وليس موهناً. فإجبار الطفل على القراءة مبكراً، لا يقل عن إجبار

المراهق على دراسة الجبر في الوقت الذي يجد صعوبة في الحساب البسيط، قد يُعرّض الشخص الفتى لتجربة مدمرة بينما هو غير مستعد فكرياً لتلك المهمة. وقد قال لي شاب في السابعة من عمره يناضل ليتعلم القراءة، «لا أستطيع القراءة أعتقد أنني فاشل في الحياة».

الطفل كرمز للحالة:

شكل آخر من الشدة يواجهه الوالدان اليوم، خاصة الأم، هو نزاع الدور. فضمن مدى قصير لا يتعدى عشرين سنة، شهد دور المرأة التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى تحولاً جذرياً. ففي الخمسينيات كانت المرأة العاملة موضع احتقار كونها لا تولي زوجها وأطفالها «اهتماماً كافياً». ولكن اليوم، بعد ربع قرن على الثورة النسائية، أصبحت نساء الطبقة الوسطى التي تختار حياة ربة المنزل تعتبر امرأة بلا طموح (وبالتالي فهي أقل ذكاء من نظيرتها العاملة) كما ينقصها احترام الذات وكبرياء الأنثى. يزيد الوضع تعقيداً أنه مع ارتفاع نسبة الطلاق، أصبح المزيد من النساء بحاجة إلى العمل. وبهذا وقعت كثير من النساء في نزاع بين رغبتهن باتقان أداء دور الأم (والمرأة) وما يمكن أن يعتبر ميلاً قوياً إلى اعتناق الآفاق الاجتماعية والمهنية الجديدة التي فتحت أمام النساء في مجتمعنا. وبهذا فإن المرأة التي تختار البقاء في البيت قد تتعرض لضغط لا يُستهان به (دون وعي منها) لأنها اختارت هذا الدور التقليدي. وفي كتاب Cinderella Syndrome The أبرزت كوليت داولينغ Colette Dowling الفراغ

وعدم الاستقرار الذي تعيشه تلك النساء. وعلى الرغم من تفاخرهن بموقع الزوج ودخله إلا أن كثيراً من النساء «اعترفن بوجود بعض الفراغ في حياتهن، ولم يستطعن الانسلاخ عن جماعات لعب البريدج، على الرغم من قولهن إنها مملة. وفي البيت الفارغ، عندما لا يكون عليهن مهمة شراء لوازم البيت أو العناية بالأولاد والقيام بدور السائق، فإنهن يقرأن القصص العاطفية»⁽¹²⁾.

التباهي بالحقوق:

تعاني تلك النساء من الشدة، سواء أدركن ذلك أم لم يدركنه. وربما كان البريدج والروايات العاطفية وسائل يهربن بواسطتها من التفكير في ما يردن فعلاً أن يجعلنه موضوعاً لحياتهن. بالنسبة للأمهات اللاتي يعانين من هذا الوضع، يصبح الأطفال التبرير الوحيد أو الرئيسي لوجود فارغ يثير الملل: «لو أن أطفالي يعطونني الإحساس بالأهمية والاحترام، لما شعرت بهذا الاستياء حيال بقائي في البيت». لكن هذا المنطق يتغاضى عن حقيقة أن الأطفال، في هذه الظروف، غالباً ما لا يسمح لهم أن يكونوا أطفالاً فحسب وإنما يدفعون باتجاه تحقيق إنجازات صغيرة. لطالما تفاخر الأبوان بإنجازات أولادهم، ولطالما قلقوا حيال تعليمهم، إلا أن ما يميز المجتمع المعاصر هو أننا نثقل كاهل الأطفال الذين لم يبلغوا سن المدرسة بعد بما نعتقد عليهم من آمال تُعقد عادة (ولو خطأً) على الطلاب الكبار في المدرسة الثانوية. فاليوم لا يتفاخر الآباء بالكيليات

والمدارس الإعدادية التي يسجلون أولادهم فيها وإنما يتباهون أيضاً برياض الحضانة التي يودعون أطفالهم فيها. وقد قالت هيلين لأكروا Helen Lacroix مديرة القبول في مدرسة فرانسيس دبليو باركر Frances W, Parcker في شيكاغو: «لقد أصبح القبول في روضة حضانة خاصة أصعب من دخول الجامعة»⁽¹³⁾.

يتمنى الأبوان، ولهم الحق في ذلك، أن يفوز أطفالهم بالقبول في حضانات على سوية عالية لا تقدم تعليماً متفوقاً فحسب، وإنما تسهل الدخول إلى كليات ومدارس إعدادية «أفضل» الا أن الأبوين (والأطفال أيضاً) يتورطون بسهولة في الاستنتاج الوهمي الذي تعبر عنه دارلا پويثريس Darla Poythress من مدرسة ثالث أطلنطا Allantas Trinity School إذ تقول: «يعتقد الأهل أنهم إذا لم يسجلوا أولادهم في مستوى الحضانة فإنهم لن ينتسبوا إلى المدرسة كلها»⁽¹⁴⁾. على الرغم من عدم وجود أي دليل على أن النجاح بإدخال الطفل حضانة جيدة له أي أثر يذكر على قبوله في المدرسة الإعدادية أو في الكلية. كما أن كلفة امتحان القبول في أي جامعة خاصة جيدة ترتفع بسرعة تجعل كثيراً من الآباء غير قادرين على تسجيل أطفالهم، خاصة بعد وضعهم في حضانات وصفوف مدرسية خاصة».

القلق الذي ينجم عن مسابقات القبول في المدرسة له أهمية رمزية. كأنه يقول: «انظر إلينا. كم نحن قلقون وملتزمون كأباء نتحمل كل هذا من أجل أطفالنا». كما أن نقل الأولاد إلى المدرسة وإعادتهم منها، وحضور مجالس رابطة الآباء

والمعلمين والمناسبات المدرسية، قد أصبح الآن «مهنة» تستهلك الوقت كله بالنسبة لأم شابة تشعر أنها محقة في عدم الحصول على عمل.

وما من شك في أن النساء يجب أن يكون لهن خيار العمل في المنزل إذا أردن ذلك وأن يتمكن من ذلك دون أي وصمة اجتماعية. وهذا ما سيجري عندما تترسخ بدور الحركة النسائية أكثر مما هي الآن. ولكن بالنسبة للحاضر والمستقبل المنظور تتعرض كثير من الأمهات الشابات للضغط والشدة بفعل رغباتهن المتضاربة بين البقاء في المنزل أو الحصول على عمل. فالأمهات اللاتي يتعلقن بدور ربة المنزل، يجدن صعوبة في مقاومة الميل إلى التباهي بالأطفال - ومنجزاتهم التعليمية المبكرة - لتبرير عزوفهن عن العمل. وبهذا فإن الأمهات - والآباء - يُحمّلون أطفالهم عبئاً ثقيلاً جداً.

الطفل كشريك

وماذا عن الأم التي تختار العمل إضافة إلى الأسرة؟ لقد ارتفع عدد الأمهات العاملات في الولايات المتحدة ارتفاعاً كبيراً في العقود القليلة الماضية. ففي سنة 1948 كانت 26 في المئة من النساء المتزوجات اللاتي لديهن أطفالاً بين أعمار ستة إلى ستة عشر سنة على رأس أعمالهن، أو يبحثن عن عمل. أما اليوم فقد تضاعفت تلك النسبة. أصبحت أكثرية الأمهات (60 في المئة) ممن أطفالهن في سن المدرسة يعملن الآن. كما أن

نسبة عدد الأمهات العاملات اللاتي لديهن أطفالاً صغاراً مرتفعة بشكل ملفت أيضاً: نصف عدد أمهات الأطفال الصغار تحت السنتين من العمر يعملن خارج المنزل بدوام كامل أو بنصف دوام بزيادة 108 في المئة منذ سنة 1970 .

ترى كثير من النساء في العمل تجربة مرضية ومشبعة، وتقول بيتي فريدان Betty Freidan إن كثيراً من النساء يعتبرن أنهن إذا لم يستطعن أن يعشن التجربة كاملة كما يجدر بهن أن يفعلن فإنهن يستطعن الاستفادة من أفضل ما في دور المرأة العاملة والمرأة - الأم، ولكن، في ضوء الفيض الكبير من الكتب والمقاولات الصحفية المكرسة لمعاناة الأمهات العاملات («هل تغارين من المرأة الأخرى في حياة طفلك؟»، «كيف تتدبر الأم العاملة أمورها»، «أنت أيضاً تستطيعين التكيف مع الشدة الإضافية»)، نخلص إلى أن كثيراً من النساء يجدن العمل مصدراً للشدة.

المرأة العاملة غالباً ما لا يكون لديها ارتباطات أسرية موسعة تعتمد عليها في العناية بطفلها كما أن اهتمامها بالتنبيه الفكري الذي يلقيه الطفل، أقل من اهتمامها بحمايته والعناية الجسدية التي يُحاط بها. فالبحث عن منشآت وعاملين يهتمون بالعناية النوعية بالطفل، خاصة الأطفال الصغار والرضع، جهد دائم ومصدر شدة مستمر.

كما أن المرأة أكثر من الرجل، تحمل العبء المزدوج

للعمل الاحترافي إضافة إلى الأعمال المنزلية. وقد أظهرت دراسة أجريت مؤخراً أن الرجال الذين كانوا يقضون نحو 9 ساعات في الأسبوع في أداء أعمال منزلية وفي العناية بالأطفال في سنة 1965، أصبحوا بعد عشر سنوات يمضون 9,7 ساعات في الأسبوع في أنشطة من ذلك القبيل. بينما المرأة التي كانت تمضي 28,8 ساعة في الأسبوع في إدارة شؤون المنزل والعناية بالأطفال في سنة 1965، أصبحت تخصص ساعة في الأسبوع لتلك الأعمال في سنة 1975. ربما كان التراجع يعكس حقيقة أن مزيداً من النساء يقمن بأعمال احترافية مما لا يترك لهن وقتاً كافياً يمضيته في المنزل.

يعاني الأبوان العاملان وخاصة الأمهات، من مزيد من الشدة حتماً بسبب ضغط الوقت أكثر مما يتعرض له الأبوان غير العاملين. في تلك الأسر يضطر الأطفال إلى التكيف مع ارتباطات الأبوين لا العكس، كما هو الحال عادة مع الأم غير العاملة. فالأطفال يجب إيقاظهم وإلباسهم وإطعامهم باكراً كيف يؤخذوا إلى مشرفة أو مركز رعاية نهاري أو حضانة. كما أن الترتيبات التي تتخذ للتوصيل المشترك بالسيارات تضيق الوقت، وكذلك جمع الأطفال وتوصيلهم. (وهناك دائماً أولئك الأهالي الذين لا يشعرون بالمسؤولية فيتأخرون دائماً، أو ينسون الموعد، أو لا يأتون، وهكذا).

ليس للأطفال الصغار قدرة كبيرة على التكيف، وكثيراً ما تضغط مواعيد الراشدين على تلك القدرات. أذكر حالة أرادت

إحدى الأمهات أن تذهب ابتها إلى حضانة مشهورة في الصباح وإلى مركز رعاية في فترة بعد الظهر، أصبحت الطفلة تشكو من انزعاج متزايد، وبعد أن ناقشنا الوضع، شجعت المعلمة الأم على إيداع الطفلة في مركز الرعاية بدوام كامل (فالدوام في المدرسة كان لنصف النهار فقط) لأن الشدة المرافقة للانتقال وإعادة التكيف كانت أثقل من أن تتحمله الطفلة .

وعلى الرغم من أن الاستعجال المبرمج لأطفال الطبقة الوسطى الصغار يبدو جديداً، إلا أنه في الحقيقة امتداد لنوع من الاستعجال كان جارياً لفترة طويلة في المستويات العمرية الأعلى. ففي مستوى المدرسة الابتدائية مثلاً، ليس مستغرباً أن يذهب بعض الأطفال لممارسة رياضة الهوكي أو السباحة أو تدريب ألعاب القوى قبل المدرسة. وبعد المدرسة قد يتلقى هؤلاء الأطفال أنفسهم دروساً في الموسيقى أو يشاركون في نشاطات الكنيسة أو نشاطات منظمة اجتماعية مدنية كتمثيل مسرحية. إن طفل اليوم الذي تثقل برامجه في مرحلة ما قبل المدرسة هو امتداد يتحدر من طفل المدرسة الابتدائية الذي أقحم في برامج مزدحمة. والواقع هو أننا نستعجل الأطفال الصغار كي يصبحوا مستعجلين كما الأطفال الأكبر سناً.

والأطفال الأكبر الذين يعيشون مع والدين يعملان، يجب أن يتعلموا هم أيضاً إعالة أنفسهم في سن مبكرة. فيتعلمون أن يستيقظوا بمفردهم، ويختارون ثيابهم، ويهيئون الإفطار، وينظفون ما يستخدمونه ويذهبون إلى المدرسة في موعدها. هذه

مطالب معقولة تفرض على الأطفال ولا تشكل، بحد ذاتها استعجالاً، وربما أمكن القول إن كثيراً من الأطفال الذين يعيشون مع أبوين واحد منهما يعمل فقط يستفيدون من المهام التي يطالبون بأدائها بأنفسهم.

فسريعاً ما تخرج المطالب والتوقعات عن نطاق السيطرة. وقد عكس أحد مرضاي اليافعين الاستعجال الذي يبرز عندما يثقل الأبوان كاهل الأطفال بهذه الطريقة. كان والد الصبي يملك موتيلاً وكانت الأم هي الطباخة في المطعم الصغير الملحق به. وكان الولد عادة يحمل القمامة إلى الخارج ويساعد عاملات الغرف أحياناً في ترتيب الأسرة. وأيام السبت عندما كان يرغب باللعب مع أصدقائه كان والده يلح على عمله في الموتيل - في تسوية العلب الفارغة التي تراكمت خلال الأسبوع في القمامة كي يصبح أجر نقل القمامة أخفض.

كان هذا الشاب الفتى (أربعة عشر سنة)، مثل معظم أولاد الأبوين العاملين، يقدر الظروف الاقتصادية التي تتطلب مساهمته. ولكن عندها تكثر المطالب عليه - بما لا ينسجم مع ما يطلبه الأبوان من ابنهما - عندها يمكن القول إن الصبي أصبح ضحية الاستعجال، بمعنى أنه أثقل بمسؤوليات الكبار وما يتوقع منهم في عمر مبكرة جداً. فبدت عليه أعراض الشدة العاطفية.

ليس سهلاً دائماً بالنسبة للأبوين العاملين أن يفصلا بين ما هو معقول وما هو غير معقول. إذا كان الطفل قادراً على البدء بتحضير العشاء لم لا يعد الوجبة كلها؟ وإذا كان بمقدور الطفل

ترتيب غرفة واحدة لم لا تجعله يرتب البيت كله؟ إن إغراء تحميل الطفل أعباء منزلية كبيرة إغراء قوي بالنسبة للأبوين اللذين يعانون من شدة ضاغطة. لكن مساعدة الأبوين شيء، وأداء أعمالهما ومسؤولياتهما شيء آخر تماماً.

طريقة أخرى يعامل الوالدان أطفالهما كشركاء هي جعلهم أصحاب قرار. فأن تطلب من الأطفال اتخاذ قرارات تليق بأعمارهم، كأن يقرروا ما يريدون تناوله على العشاء، أمر، بينما أن تتوقع منهم اتخاذ قرارات غير ملائمة، كاختيار أحد الوالدين الذي يريد أن يمضي العطلة معه، أمر آخر. فاتخاذ القرار أمر صعب بالنسبة للجميع، لكنه يصبح أصعب عندما تقوم به بمفردك. - أي عندما يكون الوالد أعزباً - دون من يخفف عنه ويشاركه المسؤولية. فالاختيار تحف به الشدة وتحسب العقابيل تحف به الشدة. «لماذا لا أترك عملي؟»، «لماذا لا أقول لزوجي السابق أن يترك الأطفال وشأنهم؟» طبيعي أن ترغب في الحديث عن أمور كهذه مع آخر، لكن الأطفال، خاصة الصغار منهم، تنقصهم الخبرة والنضج الفكري اللازمين لتقديم عون يذكر. والأطفال الذين يجدون أنفسهم في هذا الوضع غير المريح يدركون أنهم مطالبون بالمشاركة في تحمل مسؤوليات ليسوا مستعدين لها، وربما يرفضونها.

الطفل كاختصاصي بالمعالجة

الانفصال والطلاق، مصدرا القلق الأكثر انتشاراً وتجزراً في أمريكا اليوم، يصيبا واحدة من كل ثلاث زيجات. مما

يعرض نحو نصف الأطفال الأمريكيين تحت عمر الثامنة عشر للعيش في بيوت تضم أحد الوالدين دون الآخر. وعلى الرغم مما يتسببه الطلاق والانفصال من شدة ضاغطة على كلا الوالدين (كما على الأطفال) إلا أنه لا يعني الشيء نفسه بالنسبة للرجال والنساء.

بالنسبة للمرأة، تتفاقم الشدة الناجمة عن أزمة يتعرض لها الزواج أو انتهائه (بالموت أو بالطلاق) بحقيقة أن كثيراً من النساء لسن مستعدات للاستمرار اقتصادياً. وقد أشار المجلس الاستشاري الوطني لبرامج النساء The National Advisory Council On Women's Programs في تقريره الذي يحمل عنوان «نساء مهملات» Neglected Women إلى أن واحدة من كل ثلاث نساء أمريكيات تفتقد إلى المهارات اللازمة لكسب عيش كريم فهن «نتاج أنماط اجتماعية وفكرية سابقة لا مكان لها في مجتمع اليوم».

وعندما تجد المرأة نفسها وحيدة ومسؤولة عن أسرة فإن رد فعلها الأول قد يكون الصدمة والرعب. فمن جهة، هناك حضانة الأطفال، إذ تشعر المرأة الآن أن عليها أن تقوم بدور الأم والأب، وأداء مهمة الأبوين يصبح أكثر صعوبة في غياب شخص يشارك العبء أو يمكن الاتكاء عليه في أوقات الشدة. وقد قالت لي إحدى الأمهات التي كانت تودع أطفالها في مكان رعاية نهاري «إذا لم أخرج من البيت بعض الوقت فإنني أجن».

كما أن هناك أنواع أخرى من الشدة منها قلق المرأة حول كونها ما زالت مرغوبة من قبل الرجال، وكيف لها أن تخرج لمقابلتهم. والخوف والقلق من أنها قد تضطر لأن تمضي ما تبقى من عمرها وحيدة، وحيدة تماماً بعد أن يكبر الأطفال. كما أن الاستمرار في التواصل مع الأصدقاء القدامى خاصة المتزوجين منهم، الذين كانت تعرفهم عندما كانت مرتبطة بزواج، كثيراً ما يكون أصعب بالنسبة لامرأة عازبة مما هي بالنسبة لزواج سابق عازب. وما من شك في أن بالإمكان بناء صداقات جديدة، إلا أنها غالباً ما تكون مع نساء أخريات عازبات أو مطلقات أو أرامل ربما يعشن في شدة كبيرة لدرجة لا تمكنهن من تقديم العون للآخرين. فالذهاب إلى السينما أو المسرح أو أي حفل موسيقي يصبح فجأة مشكلة إذا لم تكن المرأة معتادة على الذهاب بمفردها (أو أنها لا تحب أن تفعل). خلاصة القول إن الحاجة إلى دعم الأطفال مادياً وعاطفياً، في وقت تكون هي بحاجة إلى ذلك النوع من الدعم دون أن تلقاه قد يكون الشدة الأكثر قسوة التي تتعرض لها أي أنثى في مجتمعنا.

لا عجب إذن أن تطور الأمهات العازبات النمط الفردي الأنوي المستعجل المألوف الذي يميز الوالدين اللذين يعانيان من الشدة. أحد الأشكال التي يتخذها استعجال الأمهات العازبات نمو أطفالهن هو أن يجعلونهم موضع ثقتهم. وهذه ظاهرة طبيعية بشكل أو بآخر. أم شابة، تعيش بمفردها، تبدأ

بالإسرار لابتنتها في ربيعها الثامن. ربما تخبرها عن الرجل «المجنون» في العمل الذي يتجول في المكان طوال الوقت يحادث نفسه، وقد تعبر عن بعض الإحباطات التي تشعر بها حيال زملائها في العمل أو متاعب العمل في المكتب. هذا التنفيس قد يؤدي إلى غممة قلقه عن الوضع المادي للأسرة، ثم بالتالي قد يتشعب الحديث إلى مشاعرها حيال الرجال الذين ربما كانت تخرج بصحبتهم. وعندما تلتقي إحدى الأمهات برجل يثير اهتمامها، فإن الابنة تعرف بذلك، وتجتمع به، وربما تطالب بأن تعطي رأيها به أو بعلاقة أمها به.

يُطلب من الطفل في مثل هذه الحالة أن يلبي حاجة أبويه تماماً كما عندما يستعجل الأطفال إلى دخول المدرسة أو ممارسة الرياضة. في هذه الحالة يستعجل الأطفال إلى الدخول في علاقات بين الأشخاص الناضجين لأن أحد الوالدين يعاني من الشدة ويحتاج إلى ثقة رمزية. إننا نقول (رمزية) لأن الطفل ابن الثمانية أو عشرة أعوام تنقصه الخبرة والأمان الفكري والعاطفي الضروري لتقديم أي دعم عملي لوالدته. فالطفل هنا يستطيع أن يكون مستمعاً متعاطفاً، وهذا جزء مما تحتاجه الأم في الحقيقة. ولكن، لسوء الحظ، لا يبدو أن هذا هو ما يحتاجه الطفل. فقد قالت لي دينا (5 سنوات) «أنا أحب صديق أمي الذي تفوح منه رائحة ذكية لكنني لا أحب صديقها المكسو بالشعر الكثيف الذي تفوح منه رائحة بشعة». ثم أضافت بحزن «أتمنى أحياناً ألا تسألني».

الآباء العازبون أيضاً يجعلون الأطفال بيت أسرهم. وهم عادة لا يكونون أوصياء على الطفل وبالتالي فإنهم يدركون، غالباً لأول مرة، كم هم يفتقدون، بل ويحتاجون أطفالهم. وقد يكون احترام الرجل لنفسه، كما المرأة، متدنٍ جداً نتيجة للانفصال أو الطلاق، وربما كان يشعر بالحزن على نفسه. وعندما يرى الأطفال في عطلة نهاية الأسبوع، ربما يشتكي لهم عن مقدار المال الذي يترتب عليه أن يدفعه لأهمهم وأن ذلك لا يترك له ما يكفي ليعيش به. أو ربما يعبر عن استيائه حيال النقاشات التي تسببت بالانفصال، أو يعبر عن غيرته من علاقات أهمهم الجديدة. يجد الأطفال أنفسهم في خضم هذه النزاعات بين الراشدين. إنهم يعاملون معاملة الثقة الذين يريدهم الأب حلفاء، في الوقت الذي تتوقع الأم منهم أن يبقوا على نراهمهم (وإخلاصهم) لها.

كما يواجه كثير من الآباء أطفالهم بتعلق رومانتيكي جديد قبل أن ينقضي وقت كافٍ على الانفصال. ففي بعض الأحيان يترك الأب الأسرة ليذهب إلى امرأة أخرى، الأمر الذي قلما تفعله الأم. قد تكون مغادرة الأب المنزل تصرفاً بسيطاً لكنه يسبب صدمة هائلة للأطفال. . كما أن مواجهة الأطفال بامرأة أخرى أمر مريب (خاصة بالنسبة للأطفال الصغار) يتحدى القناعات المسلم بها من أن العلاقات الأسرية رباط ملزم. فإذا أمكن تغيير طبيعة العلاقة بين الأب والأم ألا يعني هذا أن علاقة الأبوين بالأطفال قد تتعرض للمحنة نفسها؟.

الآباء العازبون الذين يقصرون في زيارة أولادهم أو في المساهمة مادياً في تربيتهم يضغطون على الصغار بطريقة مختلفة. فعلى الرغم من مساعي الأم المتكررة لتقديم الأب بأفضل صورة ممكنة، إلا أن الأطفال يشعرون بأنهم مرفوضون. وبهذا فإنهم يواجهون الخوف من الهجر في مرحلة مبكرة من حياتهم. وعليهم أن يكبروا بسرعة ليتكيفوا مع تلك المخاوف.

الطفل الضمير

أحياناً يلجأ الوالدان، في بحثهما عن راحة رمزية من الشدة، إلى إعطاء الطفل دور الحكم الأخلاقي. وفي حين قد يحدث هذا في أسر كاملة الأعضاء إلا أنه أكثر شيوعاً في بيوت تضم أحد الوالدين دون الآخر. هذه الظاهرة تنعكس بشكل واضح في حالتين أستشهد بهما من ممارستي مهنة الطب في عيادتي.

كانت أليس نوبفيل Alice Knoepfel (اسم مستعار) مطلقة جميلة في عامها السادس والثلاثين، لديها طفلان مراهقان، صبي وبنت. أسرة تعيش في بيت كبير في ضاحية راقية. بعد أن أصبح الطلاق قطعياً بدأت الأم تخرج برفقة رجل سمعته وارتباطاته المهنية موضع تساؤل، كان نقيض زوجها الرصين الذي يشتغل بمهنة تقتضي ثقافة وعلماً. أصبحت أليس حاملاً. فأصر عشيقها على إجهاضها، إلا أنها رفضت وولدت الطفل. لم تفسر أليس موضع حملها لطفليها، وإنما توقعت أن يقبلا

الوضع. بل إنها توقعت أكثر من ذلك - كأن يغفرا تصرفها ويتغاضيا عنه، ويعطياه قبولاً أخلاقياً صريحاً. ومع الوقت انتقل ابنها المراهق للعيش مع أبيه، وأصبحت ابنتها حاملاً، فأجهضت، وانقطعت عن المدرسة، وانتقلت إلى العيش مع صديقتها.

في حالة أخرى، أقدم هاري تارتاكور Harry Tartakower (اسم مستعار)، وهو مدرس رياضيات في عامه الثاني والأربعين، على هجر زوجته وولديه (وهما في عمر الخامسة والتاسعة) لتعلقه بطالبة في عامها الدراسي الأخير وقع في حبها وبعد أن انتقل إلى منزل صديقتة الجديدة، دعا هاري طفليه لزيارته وأوضح أنه يتوقع منهما قبول ترتيباته المعيشية الجديدة وتصرف بشكل أظهر عواطفه تجاه صديقتة أمام الطفلين ولم يخف حقيقة انه يضاجعها. لم يكن الطفلان مستعدان لهذا التحول الجذري في تصرف والدهما ولم يتقبلا اهتمامه بامرأة غير والدتهما. فعادا إلى المنزل يعانيان من حالة صدمة.

واحتاجا كثيراً من الجهد كي ينفثا عن الغضب والإحباط الذي شعرا به تجاه والدهما. لقد حاول كل من آليس وهاري معاملة أطفالهما معاملة الراشدين كي يستدرجا منهم مصادقة أخلاقية على تصرفات يعرفان أن المجتمع لا يقرها.

في هذين المثلين كان الأطفال يطالبون بأن يكونوا رموزاً للمجتمع الأخلاقي الأكبر - على الرغم من حقيقة أنهم لم

يفهموا تماماً ولم يوافقوا بشكل خاص على ما فعلته أمهم وما اقترفه أبيهم. وإذ يتوقع آليس وهاري من الأطفال الفهم والموافقة على تصرف يرفضه معظم الراشدين في المجتمع نفسه فإنهما لا يستعجلان نمو أطفالهما فحسب وإنما يعرضان الأطفال لعب صراع نفسي هائل.

كما أن الأطفال يشعرون بالعبء ويرفضونه. وقد قال لي طفل في السابعة، يتحدث عن والديه اللذين طلقا مؤخراً: «أبي يقول لي أشياء عن أمي ويريدني أن أحبه أكثر منها. وأمي تقول لي أشياء عن أبي وتريدني أن أحبها أكثر منه. ويطير صوابهما إذا قلت لأحدهما شيئاً جيداً عن الآخر. لقد تعبت من سؤال من الذي أحبه أكثر. فأنت بعد حين تعتاد ذلك السؤال وتمتنع عن الإجابة».

إننا جميعاً نتعرض اليوم لقدر كبير من الشدة يفرضه التغير السريع لمجتمعنا. وبعض الآباء يشعرون بتلك الشدة لدرجة تجعلهم يركزون على أنفسهم وإما أنهم ينسون تطبيق ما نعرفه عن طبيعة وحاجات الأطفال أو أنهم يجدون ذلك مستحيلاً. هؤلاء الآباء بحاجة إلى دعم أطفالهم وصحتهم ومنجزاتهم كي يواجهوا الشدة ويتغلبون عليها. وليس من الأذى في شيء أن نتوقع من الأطفال اتخاذ أحكام وتقييمات أخلاقية، وإيلاء أذن صاغية مريحة، واتخاذ قرارات. فالجيل الفتى بحاجة لأن يتعلم اتخاذ الأحكام والقرارات. المسألة لا تتعلق بصوابية أن نطلب من الأطفال اتخاذ الأحكام والقرارات والإصغاء باهتمام وإنما

بملائمة أي طلب محدد لسن الطفل وذكائه ومستوى نضجه .
مفيد أن تطلب من الطفل الاختيار بين مطعمين للوجبات
السريعة، لكن أن تطلب من الطفل أن يريح والديه من عبء
الاختيار بين حضانتين أمر غير عادل . طلبات كهذه تريح
الوالدين من بعض الشدة بأن يسقطانها على أطفالهما .